المجلس الأعلى للثقافة
الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

الغرب والعالم الإسلامى

أبحـــاث

ندوة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية
بالتعاون مع المجلس الأعلى للثقافة
(٣ : ٥ أبريل ٢٠٠٧)

تحـــــرير : عُـــبـــادة كُـــحـــيلة

٢٠١٢

المجلس الأعلى للثقافة

الأمين العام
أ.د. سعيد توفيق

رئيس الإدارة المركزية
د. طارق النعمان

المشرف على التحرير والنشر
أشرف عامر

الإشراف الطباعي والمالي
ماجدة البربري

السكرتارية التنفيذية
عزة أبو اليزيد

الإخراج الفني
هند سمير

التدقيق اللغوي
نشأت باخوم

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

كحيلة، عبادة
الغرب والعالم الإسلامي، تحرير : عبادة كحيلة.
القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة، ط ١ ، ٢٠١٢
٣٤٠ ص، ٢٤ سم
(١) أبحاث مؤتمرات

رقم الإيداع : ٢٢٣٤٥ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولي: I.S.B.N. 978 - 977 - 704 - 720 - 3
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

الأفكار التي تتضمنها إصدارات المجلس الأعلى للثقافة هي اجتهادات أصحابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلس.

حقوق النشر محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٢٧٣٥٨٠٨٤
EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo
Tel.: 27352396 Fax: 27358084
www.Scc.gov.eg

المحتويات

تقديم : - أبو أدهم 5

المحور الأول: رؤية الغرب للإسلام وحضارته

ملاحظات عن دور البحث العلمى فى حوار الأديان - فريتس شتييات 9

الغرب وإشكالية تجديد الخطاب الدينى الإسلامى ... قراءة فى المنهج - محمد نصر مهنا 29

رؤية جديدة للقصيدة العربية من معلقة امرئ القيس - فايز على 49

المحور الثانى : التأثير والتأثر

عناق الهلال والصليب : ربيع بن زيد الأسقف نموذجًا - حسن محمد قرنى عويس 69

المحور الثالث : الاستشراق؛ ما له وما عليه

دفاعًا عن الاستشراق - عاطف العراقى 105

الإسلام فى نظر الغرب؛ بين الدين والسياسة - محمود إسماعيل 125

المحور الرابع : الحوار قديماً وحديثاً

الحوار الحضارى بين المسلمين والفرنج عصر الحروب الصليبية - على السيد على محمود . 147

الحوار مع الآخر بين الحقيقة والوهم - هدى محمد شامل أباظة 198

حوار الحضارات بين الشعوب؛ ضرورة للتطور البشرى- عبد المنعم إبراهيم الجميعى 215

المحور الخامس : صورة العرب عند الغرب

عندما تكتشف فرنسا روحانية الإسلام – ليلى عنان 239

كراهية العرب والمسلمين واحتقارهم فى ثقافة الغرب – عاصم الدسوقى 245

المحور السادس : الصليبية وخطاب التعصب

خطاب التعصب فى ميراث الماضى؛ خطاب بيوس الثانى إلى محمد الفاتح

– على محمد إبراهيم كورخان 259

الجانى يتملق الضحية؛ إسلام الفرنسيين فى مصر – أحمد زكريا الشلق ... 264

الخطاب الصليبى فى الحرب العالمية الأولى – على محمد بركات 274

الغرب والعنف فى الشرق الأوسط فى أعقاب الحرب العالمية – أحمد الشربينى 286

مائدة حوار :

العالم الإسلامى والغرب؛ آفاق المستقبل – تحرير : عُبادة كُحيلة 314

تقديم

أبو أدهم

في أزمنة الأزمات ، وحين يصل الاستقطاب إلى مداه ، غالبًا ما تتصدر الساحة ثنائيات ... هذه الثنائيات لها جذورها الموغلة في أعماق الماضي ؛ وأبرزها في عصرنا الحاضر ثنائية الشرق والغرب ، وثنائية الشمال والجنوب . وأبرز تجليات الثنائية الأولى [الصراع – الحوار] ، وأبرز تجليات الثنائية الأخرى [التخلف – التقدم].

ترتبط ندوتنا هذه بالثنائية الأولى ، وتعود في أصولها إلى غزوة الإسكندر الأكبر التي تعد في نظر البعض إرهاصةً مبكرةً بالعولمة التي نعيشها اليوم ... لكننا حددناها بالغرب والعالم الإسلامي ؛ أي إنها تستغرق مساحةً زمنيةً ، تقدر بأربعة عشر قرنًا .

خلال تلك القرون نشأت صلات بين العالمين في مجالات شتى ، ووصلت في أحيان إلى الصدام المباشر ، ولدينا شواهد عليه في الحروب الصليبية ، والتي ندعوها في أدبياتنا التاريخية بحروب الفرنجة ، ولدينا شواهد أخرى في الحقبة الإمبريالية .

في عالمنا المعاصر ، ومع تدفق المعلومات ، وتحول العالم بأسره إلى قرية كبيرة ، كان من اللازم أن تشارك الجمعية المصرية للدراسات التاريخية في موضوع ، صار يطرح نفسه بشدة على الساحة ... لهذا اختصته بندوتها السنوية للعام ٢٠٠٧ .

تحددت المحاور الرئيسة للندوة في رؤية الغرب للإسلام وحضارته ، وعلاقات التأثير والتأثر بين الإسلام والغرب ، والاستشراق ما له وما عليه ، والحوار قديمًا وحديثًا ، وصورة العرب عند الغرب ، وخطاب التعصب الصليبي .

وحيث إن الصلات بين الجمعية المصرية للدراسات التاريخية – باعتبارها بيت المؤرخين – والمجلس الأعلى للثقافة باعتباره بيت المثقفين ... أقول حيث إن هذه الصلات عميقة ، ولها تجلياتها فى ندوات سابقة ، فقد عقدت هذه الندوة بمقر المجلس الأعلى للثقافة فى الفترة من ٣ : ٥ من شهر أبريل (نيسان) ٢٠٠٧ ، وشارك فيها نخبة متميزة من المؤرخين والمثقفين فى مجالات شتى ، كما شهدت حضوراً طيباً من جمهور يتطلع إلى زاد فكرى ، وهو ما يتضح من المداخلات ، التى أضفت على الندوة قدراً وافراً من الخصوبة، وفى نهايتها عقدت مائدة حوار فى موضوع " الغرب والعالم الإسلامى ؛ آفاق المستقبل " ، شارك فيها مثقفون ، يمثلون أطياف الفكر الحاضرة على الساحة ٠

هذا كله يجعلنا نقرر مطمئنين بنجاح تلك الندوة ٠

وإذا كان ثم فضل فى ذلك النجاح – بعد توفيقه تعالى – فإنه يعود إلى الأستاذ الدكتور رءوف عباس حامد رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، والزميلين الفاضلين الأستاذ الدكتور عاصم الدسوقى، والأستاذ الدكتور أحمد زكريا الشلق، وغيرهما من أعضاء الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ومجلس إدارتها ٠

الفضل يعود كذلك إلى الأستاذ الدكتور جابر عصفور الأمين العام السابق للمجلس الأعلى للثقافة، والأستاذ الفنان على أبو شادى الأمين العام اللاحق للمجلس والأستاذ الدكتور عماد أبو غازى ٠

والشكر لله تعالى أولاً وآخراً

المحور الأول

رؤية الغرب للإسلام

ملاحظات عن دور البحث العلمى فى حوار الأديان

فريتس شتيبات(*)

ليس من قبيل المبالغة أن أقول : إن هذا المعهد كان له تأثير هائل على الدراسات الشرقيـة ، لا فى لبـنان والعالم العربى وحدهما ، بل كذلك فى ألمانيا ذاتها . لقد قدم

(*) تعرفت إلى "فريتس شتيبات" قبل نيف وخمسين عامًا، حين كنت طالبًا فى مستهل المرحلة الثانوية ، وكان شابًا فى ثلاثينياته الأولى (ولد ١٩٢٣) وذلك عندما حيث انضم إلى أسرة مدرستنا (الأورمان الثانوية) والتى كانت فى طليعة المدارس آنذاك التى جعلت اللغة الألمانية إحدى لغتين يختارهما الطالب كلغة أوربية ثانية .

هكذا أضحى "فريتس شتيبات" معلمًا فى مدرستنا – وإن كانت لفترة قصيرة – تحول بعدها إلى مفتش (موجه) ، يختلف إلى مدرستنا بين حين وآخر وغيرها من مدارس القاهرة .

فى عام ١٩٥٩ غادرنا شتيبات إلى وطنه ألمانيا ؛ حيث تابع دراساته العليا إلى أن صار مستشرقًا مرموقًا ، بل عميدًا للاستشراق الألمانى حتى وفاته قبل ثلاث سنوات .

فى العام الماضى ٢٠٠٧ عقدت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ندوتها السنوية فى موضوع "الغرب والعالم الإسلامى" ودعوت أستاذى الفاضل وصديقى القديم الأديب والفنان والفيلسوف عبد الغفار مكاوى ، كى يشارك فى فعاليات تلك الندوة ، وكم كان جميلاً منه أن يتحفنا بمشاركة طيبة كان موضوعها "الإسلام شريكًا" عرض فيها لفكر هذا العالم الجليل الذى كان أستاذه إلى كونه أستاذى .

فى فقرة جامعة مانعة يصف عبد الغفار مكاوى أستاذه فريتس شتيبات فيقول : "يعد فريتس شتيبات نموذجًا رفيعًا للعالم والباحث فى العلوم الانسانية والتاريخ العربى والإسلامى بوجه خاص؛ فهو يجمع بين النظر والعمل ، ويؤلف بين العقلانية الدقيقة والتعاطف الدافئ والإنصاف الحكيم ، ينخرط فى بحثه بكل طاقته ، ويتأمله كذلك من مسافة بعد كافية ، يشارك فى موضوعه بقلبه ومشاعره واهتمامه الشخصى ، كما يحلله تحليلاً موضوعيًا وتاريخيًا نقديًا من أكثر من منظور... " .

عندما انتهت الندوة أمسكت بخناق أستاذى عبد الغفار مكاوى أطالبه بمشاركته فى صورة مفصلة ، لكنه اقترح أن أختار فصلاً من فصول الكتاب الذى نرجمه لشتيبات وصدر فى العام ٢٠٠٤ (عالم المعرفة – الكويت العدد ٣٠٢) بالعنوان ذاته "الإسلام شريكًا" .

تحية لأستاذى الجليل "عبد الغفار مكاوى" – نفعنا الله بعلمه ومتّعه بالصحة والعافية – وتحية مضاعفة لأستاذه وأستاذى الجليل فريتس شتيبات رحمه الله .

تيسيرات فنية عديدة للباحثين الألمان والعرب على السواء . وإذا كان المستشرقون الألمان يعتزون بتراث طويل وعريق فى دراسة اللغات والحضارات الشرقية ، فلابد من القول : إن معظم جهودهم قد اتجهت إلى الماضى . وقد استطاع المعهد الشرقى فى بيروت أن يقدم للمستشرقين الألمان فرصة العمل فى بيئة شرقية ، وأن يلفت أنظارهم إلى الشرق الحى ، وينبههم إلى أن لغات وحضارات الماضى كانت وما تزال واقعًا ينبض بالحياة ويؤكد تأثيرها المستمر- بأشكال وصور مختلفة - على ميادين الفكر والعمل والحياة اليومية؛ والمشكلات، والقضايا الملحة فى الوقت الراهن . وهكذا يمكن القول : إن المعهد الشرقى قد ساهم بدور ملحوظ فى الاهتمام المتزايد بدراسة الشرق الحديث من مختلف جوانبه وآفاقه المترامية .

والتوسع فى آفاق البحث والدراسة ، لاسيما إذا تطرق لموضوعات معاصرة ، لا يمكن له أن يخلو من المخاطر والمآزق . والواقع أن حجة العلماء الذين يرفضون التعرض لمثل هذه الموضوعات تتلخص فى الغالب فى أن تناول الشؤون المعاصرة يمكن أن يجر الباحث للانزلاق فى السياسة . تلك بالطبع حجة مشروعة . فالحق أن جهد الباحث العلمى يمكن أن يفقد الكثير من قيمته ، إن لم يفقد كل قيمته ، إذا رجحت فى ميزان عمله كفة الأغراض السياسية كفة البحث الخالص عن الحقيقة . ولكن لا يمكن من ناحية أخرى أن ننكر أن على العلماء والباحثين - شأنهم فى هذا شأن بقية المواطنين - واجبًا يقتضى منهم خدمة الصالح العام من خلال المعرفة التى حصلوها فى تخصصاتهم المختلفة . صحيح أن البحث عن الحقيقة لا يجوز بأى حال من الأحوال أن يكون تابعًا لأى اهتمام آخر غير البحث عن الحقيقة . أضف إلى هذا أنه لا ينبغى على هؤلاء الباحثين أن يدّعوا الصدق المطلق لمعارفهم ، وأن عليهم فى هذه الحدود أن يشاركوا بإرادتهم واختيارهم فى تكوين الرأى العام . ومن حسن الحظ أن عددًا كبيرًا من شباب الباحثين قد بدأوا السير فى هذا الاتجاه .

أود الآن أن أقدم بعض الملاحظات المتصلة بمجال تخصصى فى الدراسات الإسلامية عن قضيتين يدور حولهما النقاش العام بشأن الشرق الأوسط ، وأعتقد أن

هاتين القضيتين من الأهمية بدور بحيث ينبغى على الباحثين المتخصصين أن يدلوا فيها بدلوهم :

١- وصف الإسلام بأنه عقبة كبرى أمام السلام العالمى فى عصرنا .

٢- مشكلة الحوار بين الأديان ، وبالأخص بين الإسلام والمسيحية .

ولست أضيف جديداً إذا قلت إننا نلاحظ منذ سنوات قليلة ميلاً شديداً ومفاجئًا فى الغرب على اعتبار الإسلام خطراً يهدد العالم الحر ، بل اعتباره مصدر الإزعاج الباقى للسلام على الأرض . لقد بدأت هذه الظاهرة مع تفكك الاتحاد السوفييتى وانهيار النظم الشيوعية فى أوربا الشرقية .

وتفسير هذه الظاهرة يفرض نفسه بنفسه . فمن الناس من يشعر ببساطة بالحاجة الدائمة لمواجهة خطر أو عدو يهدده ، وإذا كان الخطر الشيوعى قد انحسر ، فان الإسلام والمد الإسلامى هما البديل المناسب . ولدى يقين مؤكد بأن الدوافع الكامنة وراء هذا الموقف دوافع غير عقلانية . ولهذا أعتقد أنه لا ينبغى أن تترك هذه الظاهرة بغير تفسير أو تعليق دقيق ، لاسيما إذا تبنتها جهات محترمة أو ارتفعت بها أصوات مؤثرة .

ولعل أهم المناقشات التى دارت فى هذا السياق على المستوى الأكاديمى قد افتتحتها مقالة نشرت فى مجلة "الشئون الخارجية" الأمريكية فى العام الماضى (١٩٩٣) . وعنوان هذه المقالة هو "صدام الحضارات" ومؤلفها" صمويل ب. هنتنجتون أستاذ علم الحكومات، ومدير معهد جون أولين للدراسات الاستراتيجية فى جامعة هارفارد [١] . ويسعى مؤلف المقال إلى وضع نموذج يساعد على فهم العلاقات الدولية بعد انتهاء الحرب الباردة ، وذلك على أساس افتراض مؤداه أن "المصدر الرئيسى للصراع فى هذا العالم الجديد لن يكون فى المقام الأول أيديولوجيا ولا اقتصاديا ، وأن

التقسيمات الكبرى بين أبناء البشر وكذلك المصادر الأساسية للصراع ستكون كلها حضارية " (ص٢٢ من المقال المذكور) ويحدد هنتنجتون سبع أو ثماني حضارات ستشكل صورة العالم على نطاق واسع . هذه الحضارات في رأيه هي الحضارة الغربية ، والصينية الكنفوشيوسية واليابانية ، والإسلامية ، والهندية ، والسلافية الأرثونوكسية ، والأمريكية – اللاتينية ، وربما أمكن إضافة الحضارة الإفريقية إليها . ويذكر صاحب المقال أن "أهم" العوامل التي تميز الحضارات بعضها عن بعض هو عامل "الدين" (ص٢٥) .

لن أستطيع الدخول في تفصيلات المناقشات التي أعقبت نشر مقال هنتنجتون ، ولا أن ألخص الانتقادات التي وجهت للفرض الذي طرحه . يكفي القول في هذا السياق إن هنتنجتون يؤكد نقطة مهمة بتشديده على أهمية تحديد الهوية الذاتية في توجه البشر ومواقفهم من الحياة ، وكذلك على أهمية الحضارة والدين بوصفهما عنصرين أساسيين في تحديد تلك الهوية . فلا شك في أن الناس يشعرون بالحاجة الشديدة إلى الاعتماد على القوى التي لا تأتي من الخارج ، وإنما تنبع من داخلهم وتعبر عن شخصيتهم الأصيلة المتفردة . ويستندون فيها إلى "سند من تراثهم الخاص" كما يقول أستاذي فالتر براونه[٢] .

وفي تقديري أن هنتنجتون يبالغ مبالغة شديدة في حديثه عن تأثير هذين العاملين على الممارسة السياسية في العالم . فمن الصحيح – فيما يتعلق بالإسلام – أن اقتناع المسلمين جميعًا بانهم يكونون جماعة أو "أمة" قد وحّد بينهم على الدوام في الشعور بالتضامن و التكافل . ولكن من الصحيح أيضًا أن العالم الإسلامي الرحب تعيش فيه شعوب وفئات اجتماعية مختلفة المشاعر والمصالح . وأغلب الظن أن هذه الشعوب والفئات المتعددة ليست على استعداد للتضحية بمصالحها الحيوية في سبيل وحدة إسلامية أعظم . وليس هذا من قبيل المصادفة ، لأن الدين الإسلامي يتيح للأفراد والجماعات مجالاً واسعًا وأفقًا رحبًا للتفسير . ولا توجد كذلك في الإسلام

سلطة عليا لتقرير ما هو التفسير الصحيح - فليس فيه "بابا" ولا "دالاى لاما" ، ولا مجمع كنسى ولا مجلس مسكونى ، والمؤمنون به يتمتعون بحرية واسعة فى هذا الشأن (أى فى حرية التفسير) ماداموا يسعون بإخلاص وصدق للوصول إلى الحقيقة . ومن الممكن ، والحال كذلك ، أن يصل هؤلاء المؤمنون إلى استنتاجات مختلفة عن الموقف الصحيح من قضية معينة ، كأن تكون هذه القضية هى قبول أو رفض الحضارة الغربية أو أى حضارة غيرها . وهنالك من جهة أخرى مشاعر الانتماء والتوحد فى مصير مشترك ، وهى مشاعر تتجاوز حدود الجماعة الدينية ولها مع ذلك تأثير قوى لا يستهان به . وأضرب لهذا مثلاً واحداً من العلاقات القوية والحميمة التى تربط بين المسلمين والمسيحيين العرب - وهو مثل لا يفسح له نموذج هنتنجتون عن الحضارات القائمة على الدين مدخلا/بابا فيه . لقد تحدّى هنتنجتون نقاده أن يقدموا نموذجًا أفضل من نموذجه . ويبدوا لى أن تقسيم البشر إلى مجتمعات صناعية وأخرى غير صناعية أو فى سبيلها إلى التصنيع - وهو الذى تثار حوله المناقشات تحت شعار "الصراع بين الشمال والجنوب" أو غيره من الشعارات - يمكن أن يفى بالغرض .

مجمل القول أن العيب الذى يؤخذ على حجة هنتنجتون عن الحضارات هو أن هذه الحضارات ليست متجانسة بل ولا محددة،تحديداً كافيًا للتمييز القاطع بينها . والظاهر أن استخدام مفهوم الحضارة مع مفهوم الدين الملازم لها باعتبارهما يمثلان الخط الأساسى للتفرقة بين أطراف الصراع الكبرى فى عالم اليوم - هو أن هذا الأمر لن يساعد كثيراً على تفهم هذه الصراعات .

وينبغى أن نذكر وجهًا آخر من وجوه الاعتراض على نموذج هنتنجتون . فإعطاء الدين هذا الوزن الكبير واعتباره العامل المحدد لتكوين الجماعات يمكن أن يؤدى إلى نتائج بالغة الخطورة ، خصوصًا أن هنتنجتون ينظر فى الأساس إلى الصراع على أنه يعنى الحرب : "إن خطوط الحدود الخاطئة التى تفصل بين الحضارات ستكون هى

خطوط المعارك فى المستقبل[٣] ، والحرب العالمية القادمة ، إذا قامت مثل هذه الحرب ، ستكون حربًا بين الحضارات " . ويبدو له (أى لهنتنجتون) بوضوح من سيكون العدو الأول للغرب فى مثل هذا الصدام بين الحضارات . إنه فى نظره هو الإسلام الذى يملك "حدودا دموية" بل إنه يرى أن الإسلام والصين الكنفوشيوسية يشكلان ارتباطا عسكريا لمواجهة القوة العسكرية للغرب (راجع المقال السابق ذكره عن صدام الحضارات ص٢٢-٣٤-٣٥-٤٧) .

أود الآن أن أكرر رأيى فى ان الحضارة والدين ، وإن لم يكونا هما العاملين الوحيدين فى تكوين الهوية الجماعية للبشر ، فلا شك فى أنهما يقومان بدور مهم فى تكوين هذه الهوية . ولو سلّم الرأى العام فى الغرب "المسيحى" - وفقًا لتصور هنتنجتون - بأن الإسلام هو عدوه الطبيعى ، لما استنتج المسلمون من ذلك سوى أن عليهم ألا يتوقعوا من الغرب غير العدوان عليهم . ذلك على التحديد هو الذى يمكن أن يدفع المسلمين كافة ، بصرف النظر عن الاختلافات القائمة بينهم فى المشاعر والمصالح ، إلى اتخاذ موقف عدائى موحّد ضد الغرب . إن هنتنجتون ، حتى ولو أخذ حضارات أخرى فى الاعتبار ، إنما يضع فى الواقع إطارًا نظريًا لاستنفار كل من الإسلام والمسيحية تجاه الآخر . وهكذا نجده يتنبأ بنبوءة يتوقع لها أن تتحقق .

ليس من الخطر الشديد فحسب أن نعطى للدين الدور الأساسى فى تحديد تكون الجماعات فى نظام عالمى مهيأ للحرب . إننى مقتنع كذلك بأن هذا ببساطة خطأ فادح فى التفكير . ولكى أكون أكثر تحديدًا فإننى أقول: إنه لا المسيحية ولا الإسلام ، بحكم طبيعتهما وماهيتيهما ، يريدان الحرب . ونحن نعلم من التاريخ أن كليهما قد استغل فى بعض العهود لتبرير الحرب وتعبئة جماهير المؤمنين بهما للقتال . ولكن لا ينبغى أبدًا أن نعتبر أن ذلك كان هو هدفهما الحقيقى . ذلك أن ظاهرة الحرب الدينية يجب دائمًا أن تفسر فى إطار سياق تاريخى . وقد ذكرت من قبل أن ظهور عداوة عامة من

جانب الغرب تجاه الإسلام يمكن كذلك أن يدفع المسلمين من جانبهم إلى اتخاذ موقف عدوانى موحد ضد الغرب . غير إن رد الفعل هذا لن يكون نابعًا من نزعة عدوانية أساسية فى داخل الإسلام ، بل سيكون نتيجة مترتبة على مجموعة من العوامل التاريخية وعلى الأفعال وردود الأفعال من كلا الطرفين .

إن هنتنجتون يبنى آراءه ، بقصد أو بغير قصد ، على افتراض مؤداه : إن الأديان يواجه بعضها البعض بطريقة لابد أن تؤدى بالضرورة إلى كل أنواع الصراع ، بما فى ذلك الصراعات العنيفة . ولكنى فى الحقيقة أرفض هذا الافتراض رفضًا تامًا : صحيح أن الأديان يمكن أن تقود إلى الصراع ، ولكن حدوث هذا ليس أمرا حتميًا . وإذا أردنا للصراع ألا يتفجر ، فينبغى أن نفكر تفكيرًا هادئًا فى هاتين "الاستراتيجيتين" .

١- تجنب تكوين التكتلات السياسية التى تساعد على تفجر الصراعات المصبوغة باللون الدينى .

٢- وأن نعمل على زيادة التفاهم المتبادل، وإيجاد الأرض المشتركة بين أتباع الديانات المختلفة بغية التقليل من إمكانات الصراع .

وقد سبق أن أبديت بعض الملاحظات عن الاستراتيجية الأولى ، أما عن الثانية فأود أن أشير بصددها على النشاط الملحوظ فى تبادل المعلومات والخبرات والآراء الذى يطلق عليه فى هذه الأيام حوار الأديان .

ويعد حوار الأديان فى نظر دوائر واسعة من الرأى العام أمرًا جديرًا بالثناء ، كما أن هناك من يقول إن مساندته "تصرف سياسى سليم" .. ولكن هذه المواقف لا ينبغى أن تقودنا إلى الظن بأنه ليس فى حاجة إلى التشجيع . فبينما يحمل مؤيدوه عن طريق الكلام فى أغلب الأحيان أفكارًا سطحيةً عنه ، نجد من ناحية أخرى مقاومةً رهيبةً له ، وهى مقاومة ترتكز على اقتناعات عميقة الجذور فى الوجدان . ونستطيع أن نميّز فى أصحاب هذا الفريق بين مجموعتين ، إحداهما ترى أن حوار الأديان عمل

عقيم ، والأخرى تخشى أن يؤدى هذا الحوار إلى تخريب الدين الذى تؤمن به . ولنبدأ "حوارنا" معهما بالفريق الأول .

يمكننا أن نميّز ، بين أصحاب الرأى القائل بعقم الحوار بين الأديان ، مجموعتين اثنتين . فالمجموعة الأولى تزعم أن الدين - بما هو دين - شىء لا وزن له ، ومن ثمّ فإن رفض أصحابها للدخول فى حوار الأديان هو نتيجة منطقية لموقفهم الذى لا يمكن قبوله من الناحية التاريخية ولا يستحق مجرد مناقشته . أما أصحاب المجموعة الثانية فيحترمون الدين ، أو على الأقل دينهم ، أشد الاحترام ، ولكنهم يرفضون الدخول فى حوار مع أصحاب الأديان الأخرى . وقد قام أحد زملائى المستشرقين منذ وقت قريب بنشر كتاب عن تاريخ العقيدة الإسلامية ، وهو كتاب بالغ الأهمية يصف المؤلف فى مقدمته الحوار بين الأديان بأنه ظاهرة دالة على "روح العصر" ، وإن كان هو نفسه لا يحب أن ينخرط فيها أو يلتزم بها . وهو يشرح أسباب هذا الموقف الرافض بقوله : "إنه لشىء مرعب أن يحاول معلمو الدين أن يجدوا ، أو يخترعوا ، أقصى ما يمكنهم إيجاده أو اختراعه من سمات مشتركة بين أديان العالم ، وذلك رغبةً منهم فى إلغاء أسباب التوتر عن طريق الافتعال السطحى للتجانس بينها " ولهذا نجده يقول عن نفسه : إنه يحجم عن التسرع باكتشاف أوجه تناظر أو تشابه بين كل من الإسلام والمسيحية " ، لأن مثل هذه المحاولة تقود ، من حيث المبدأ ، إلى الضلال [٤] .

يتضح من هذه النصوص المقتبسة أن الآراء التى يعبر عنها أصحاب هذه المجموعة تمتد جذورها فى موقفهم الذى ربما لا ينكر وجود سمات مشتركة بين الأديان ، ولكنه يعتبر هذه السمات أقل أهميةً بكثير من الخلافات القائمة بينها .

إنه من الواضح أن الأديان يختلف بعضها عن بعض من وجوه كثيرة اختلافات مهمة . ولكننا لو أمعنا النظر فيها عن قرب لتأكد لدينا كذلك أنها تتحدد فى عدد من

السمات المشتركة ذات الأهمية البالغة . وتصدق هذه الملاحظة على مستوى البشرية بوجه عام ، ولكنها تصدق بدرجة أكبر على الأديان الإبراهيمية الثلاثة ، وهى اليهودية والمسيحية والإسلام

إن الدين يستجيب لحاجة عميقة فى الإنسان . ولو شئنا أن نعبر عن هذا بمصطلحات الفلسفة الوجودية لقلنا إنها الحاجة لقوة الوجود التى تهزم اللا - وجود الذى نلقاه ونعانيه فى تجارب الموت ، والعذاب ، والإخفاق ، والظلم ، والإثم ، وفقدان المعنى ، ولو شئنا أن نعبر بلغة بسيطة مألوفة لقلنا إن الدين يستطيع أن يمدّنا "بالمعنى الأخير للحياة" .. بمصدر ومصير وجودنا وغايته ، أى بالإجابة عن السؤالين الخالدين : من أين ؟ والى أين ؟ وهو يستطيع أيضا أن يضمن لنا "قيما عالية ومعايير غير مشروطة .. أى علّة مسؤوليتنا والهدف منها" . والأديان "حريصة على سعادة الإنسان" . وذلك بتقديم التوجه الدينى الأساسى؛ أى السند ، والعون ، والأمل ، ومنحنا الكرامة الإنسانية ، والحرية الإنسانية ، والحقوق الإنسانية ؛ أى الأساس الذى يرتكز عليه العمق النهائى (٥) .

والنصوص الأخيرة قد صاغها "هانز كينج" بقلمه ، وهو عالم لاهوت كاثوليكى ، يؤمن بأن الديانات العالمية تشارك فى المبادئ السابقة ، وينطلق من هذا الإيمان لوضع مشروعه العظيم عن "أخلاق كوكبية" يمكن أن يتفق على مبادئها جميع المؤمنين فى جميع الأديان، بل وأصحاب النزعة الإنسانية من غير المتدينين، ويكوّنوا تحالفا مشتركا لخير البشرية . ومن فكرة كينج هذه خرج "الإعلان عن الأخلاق العالمية" الذى أقرّه برلمان الأديان العالمية الذى انعقد فى شيكاغو سنة ١٩٩٣ ، وهذا البرلمان ليس مؤسسةً رسميةً ، كما أن أعضاءه لا يمثلون سلطات دينيةً رسمية ، ولكن هذا لا يجرّد الإعلان من أهميته ، وإنما يؤكد أن أفكار "كينج" تلقى ترحيبًا واسعًا وتقدم إمكانية حقيقية للتفكير بصورة تتفق اتفاقًا كاملاً مع المبادئ التى تقوم عليها الأديان المختلفة (٦).

ولو رجعنا للحديث عن الأديان الإبراهيمية الثلاثة ، وهى اليهودية والمسيحية والإسلام ، لتأكدنا من وجود أرض مشتركة بينها ، وتدعمها حقيقة كونها ديانات تنتسب إلى أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، كما تتفق جميعها على الإيمان بعقيدة التوحيد . إن المسيحية تعترف بالكتاب المقدس لليهودية ، والإسلام يعترف بالكتب المقدسة لليهودية والمسيحية . وقد قامت على مرّ التاريخ علاقات وثيقة وعميقة بين المؤمنين بالأديان الثلاثة ، أدّت إلى مناقشات مستفيضة لأفكارهم وإلى تبادل الخبرات والتجارب بينهم . بيد أنه لا يعنى هذا عدم وجود اختلافات أساسية كثيرة بين الديانات الإبراهيمية الثلاث ، فالمتوقع من الباحثين المتخصصين فى هذه الأديان أن يحددوا هذه الاختلافات ، والمتوقع منهم أيضًا أن يبيّنوا أوجه التشابه والتناظر المشتركة بينها .

والواقع أن الاختلاف والتشابه كثيرا ما يكونان متداخلين . ومسألة العلاقة بين الإنسان والله هى أحد الأمثلة الواضحة على هذا التداخل[٧] . فاليهودية والمسيحية تسلمان بما جاء فى التوراة (سفر التكوين ١ ، ٢٦-٢٧) من أن الله قد خلق الإنسان على صورته (أى على صورة الله سبحانه) . ومن المستحيل على الإسلام الذى يتحاشى النزعة التشبيهية بالإنسان (الأنثروبومورفيزم) ويفزع منها ، أن يسلم بالعبارة السابقة . ومع ذلك فقد عرف المسلمون العبارة على صورة حديث شريف ورد فيه ما معناه أن الله قد خلق آدم على صورته . ولكنهم (أى المسلمين) فهموا النص بطريقة مختلفة ، إذ قالوا إن الله سبحانه قد اختار أن يسوّى آدم على إحدى الصور التى فى علمه جلّ شأنه . وهكذا بقيت الآية الكريمة "ليس كمثله شيء وهو السميع البصير" (الشورى ،١١) فوق كل نقاش .

هل نستنتج من هذا ، فيما يتصل بالعلاقة بين الله والإنسان ، وجود فجوة بين الإسلام والديانتين الابراهيميتين الأخريين ؟ ربما يبدو الأمر كذلك . ولكننا لو عرفنا أن خلق الإنسان على صورة الله ، كما يتصوره اليهود والمسيحيون ، لا يمكن أن يفهم منه

التشابه في الشكل ، بل يجب أن يفسّر بوصفه استعارة تدل على علاقة وثيقة وحميمة هي علاقة القرب من الله ، فإن المسلمين لن يختلفوا على ذلك . وآية ذلك أن الإمام الغزالي العظيم يذهب إلى وجود "مناسبة باطنة" بين الإنسان والله ، أي علاقة قرب لا يصح أن تختلط مع التشابه في المنظر أو الشكل . ويذكرنا الغزالي في هذا السيّاق بوصية الصوفية : "تخلقوا بأخلاق الله" بما يفترض فيمن يأخذ بهذه الوصية الاستعداد والشوق للقرب من الله .

بيد أن أهم استعارة تشير إلى قرب الإنسان من الله تنطوي على فكرة أن الله قد جعل الإنسان خليفته في الأرض . والجدير بالملاحظة أن هذه الفكرة لا تستند إلى نص حرفي من القرآن الكريم ، وإنما تعتمد على تفسير النص . وقد جاء في آيات كثيرة أن الله قد جعل البشر خلفاء على الأرض . وكلمة "الخليفة" تعني "اللاحق" أو "النائب" . ومن المعروف أنها قد أطلقت على من رأس الجماعة الإسلامية الكبرى بعد انتقال محمد (عليه الصلاة والسلام) إلى الرفيق الأعلى ، وذلك معنى "خليفة رسول الله" . وربما وجب فهم الاستخدام القرآني لكلمة "خليفة" بمعنى مشابه : فالله قد جعل آدم أو داوود على سبيل المثال ، أو غيرهما من البشر ، "خلفاء" لأشخاص ، أو جماعات ، أو أجيال عاشت قبلهم . ولا يوجد في القرآن الكريم نص يوجب فهم كلمة "الخليفة" بطريقة لا لبس فيها بأنه "نائب" عن الله – إذ إن من الواضح أن الله جل شأنه لا يمكن أن يخلفه أحد أو أن يكون له "خليفة" . ومع ذلك كله فإننا نجد لدى بعض العلماء المسلمين اتجاهًا واضحًا ، تزايد نموه مع الزمن ، لتفسير كلمة "الخليفة" كما وردت في القرآن الكريم بحيث تدل على "نائب الله" في أرضه . وفي الوقت الذي كانت فيه الكلمة لا تشير في البداية إلا إلى "خليفة رسول الله" ، تزايد الميل مع مرور الزمن إلى الاستناد للقرآن الكريم في تفسيرها بحيث تعني أن الله سبحانه قد جعل بعض الناس ، أو بعض المسلمين ، "خلفاء" أو نوابًا له على الأرض .

لا شك فى أن المجال يتسع لفهم وضع "خليفة" أو "نائب" الله على معانٍ مختلفة . وقد تساءلت من قبل عما إذا كانت الكلمة تشير إلى البشر عامة أو إلى المسلمين فحسب . وأعود إلى الغزالى الذى ذهب إلى أن "المناسبة الباطنة" – أو علاقة القرب الحميم – بين الإنسان والله التى تؤهل الإنسان لكى يكون نائبًا لله على الأرض تتضمن بوضوح معنى البشر عامة . وفى العصر الحديث نجد مفكرين مرموقين ، مثل محمد عبده ومحمد إقبال ، يتخذان موقفًا مشابهًا ، حيث يؤكد كل منهما تفوق الإنسان على سائر المخلوقات . غير أننا نجد "أبو الأعلى المودودي" ينسب صفة "نائب الله" لجماعة المسلمين الذين يلتزمون التزاما صارما بشريعة ثابتة لا تترك لهم سوى قدر ضئيل من حرية تشكيل العالم . كذلك نجد أن أحمد مصطفى المراغى يوجه الأنظار إلى أن إمكان تعيين نائب لله أمر مقصور على فرد واحد أى إلى حاكم معين . ومن جهة أخرى نرى المفكر التركى "زيا جوكالب" يعلن أن "الشعب" (أو "الناس") هم ممثلو الله على الأرض . ويذهب "على شريعتي" إلى حدّ اعتبار أن "الناس" والله فى القرآن الكريم مترادفان ، وأنهما مصطلحان يمكن أن يحل أحدهما محل الآخر فى كل ما يتعلق بقضايا المجتمع . إن عبارة "الحكم لله" تعنى فى رأيه أن الحكم للشعب ، كما أن عبارة "المال لله" (أى الملك أو الثروة) معناها أنه ملك للشعب .

يتبين لنا الآن أن التفسيرات السابقة تختلف من مفكر إلى آخر حسب مواقفه الدينية والسياسية ، وأن الذى يجمع بينهم هو فكرة أن الإنسان يحتل منزلةً أسمى بكثير من سائر المخلوقات ، وأنه شديد القرب من الله جلّ شأنه . وحتى إذا كان وصف الإنسان بأنه على صورة الله أو أنه يشبهه لا يزال أمرا غير مقبول لدى المسلمين ، فإن صورة الإنسان عندهم لا تبدو مختلفة تمام الاختلاف عن صورته فى اليهودية والمسيحية . وليس صحيحًا ، كما ذهب البعض إلى ذلك أحيانًا ، أن الإسلام يرى أن الله سبحانه بعيد بعدًا لا متناهيًا عن الإنسان (لأن ذلك قد ينتج عن فهم متطرف لفكرة تعالى الله أو علوّه) . وليس من الصحيح كذلك أن الإسلام لا يفتح الأبواب واسعةً أمام أساليب التفكير ذات النزعة الإنسانية .